البلاغة بين اللفظ والمعنى

« من عصر الجاحظ الى عصر ابن خلدون »

- ٢ -

الشعر والشعراء : لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

لم يتعرض ابن قتيبة لبحث البلاغة - او فن الجمال في القول في تعبيرنا - بصورة مجردة ولم يحاول وضع او نقل تعريفات لها بل لم يذكرها اثناء كلامه على اقسام الشعر في كتابه الشعر والشعراء فيقول مثلاً إن الشعر يكون بليغاً إذا حوى من الصفات كذا وكذا ، ولم يحلل الأشعار التي استشهد بها تحليل البلاغيّ ، وإنما قسّم الشعر الى اربعة اقسام تقسيم الأديب المجمل ، واستعمل كلمتي الحسن والجودة في وصف اللفظ والمعنى ومشتقاتهما ، دون لفظي الفصاحة والبلاغة ، ولم يتعرض بالتفصيل لأسباب الحسن والجودة او القبح والتقصير في الأشعار التي جاء بها كأمثلة على اقسام الشعر ، ولم يخفل كذلك بذكر او شرح نظرية التأليف والنظم في الكلام ، وهل هي عملية معنوية ام لفظية ؟ وكل ما كان منه هو ان جعل اللفظ والمعنى شريكين في الحسن ، وأن احدهما قد ينفرد عن الآخر في الشعر فيكون حسناً ايضاً ، ولكنه في هذه الحالة يكون دون الشعر الذي اجتمع فيه حسن اللفظ مع حسن المعنى ، وهما مقياسا الجمال العامان في الفن الشعري . وبواسطة هذين المقياسين قسم ابو عبد الله بن قتيبة الشعر وجعله اربع مراتب يأتي في المرتبة الأولى منه الشعر الذي حسن لفظه ومعناه ، وقد ضرب عليه مثلاً قول الشاعر في بعض بني امية : (وينسب هذا الشعر الى الفرزدق في علي بن الحسين زين العابدين العلوي) :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« في كفه خيزران ريحها عبق من كف اروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم »

وقول الآخر :

« ابتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا »

وقول النابغة :

« كليني لهم يا أميمةَ ناصب وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب »(١)

وإذا فحصنا هذه الأبيات وجدنا فيها اشياء كثيرة غير اللفظ والمعنى ففيها جودة السبك وجمال الأسلوب وفيها العاطفة القوية التي يخاطب بها قلب الشاعر قلب السامع أو القارئ وفيها التصوير وفيها الايجاز وفيها التشخيص ويظهر أن ابن قتيبة كان يدخل كل هذه الأشياء في اللفظ والمعنى معاً او في احدهما وهو موفق الاختيار في هذا القسم . فاذا انتقلنا الى شعر المرتبة الثانية وهو الذي حسن لفظه دون معناه وجدنا ابن قتيبة غير موفق في فهم وتذوق الأمثلة التي يوردها وذلك لإعطائه للمعنى مفهوماً خاصاً قصد به المعنى العام الساذج الذي يكون حكمة او مثلاً او فكرة علمية او اجتماعية ، فقد ضرب المثل بهذه الأبيات الثلاثة وهي من غرر الشعر :

ولما قضينا من مِنىً كل حاجة وصوَّح في الأركان من هو صائح
وشُدَّت على حُدْب المَهارَى ركابنا ولم يبصر الغادي الذي هو رائح(٢)
أخذنا بأطراف الحديث بيننا وسالت بأعناقِ المطي الأباطح

وقال فيها : « هذه الألفاظ كما ترى أحسنُ شيء مخارجَ ومطالعَ ومقاطعَ وإن نظرت الى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا ايام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الانضاء ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح ، وهذا الصنف في الشعر كثير » .

(١) الشعر والشعراء ص ٧ اقسام الشعر . (٢) نفس المرجع ص ٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذه الأبيات في الحقيقة مثال للشعر المتأجج عاطفةً ، الحسنِ التصوير ، الذي يمثل حالة المحب الذي ودع أماكن ذكرياته ويصور انشغال الناس واضطراب أفكارهم وأبصارهم وهم عازمون على سفر كما يترك للخيال الواسع العنان أن يتصور كل حديث يمكن أن يتناول في مثل هذه المناسبات . وانتخاب الألفاظ كان موفقاً جداً توفيق الصور التي يعرضها لسير المطيّ وقد سالت بأعناقها الأباطح فهذه الصورة صورة عامة شاملة فيها حركة وفيها تنوع وفيها عاطفة وفيها حديث حسن وكل هذا غاب عن ابن قتيبة فلم يذكر منه الا اللفظ . ولا أظن كل هذه المحاسن قد غابت عن ذوق ابن قتيبة وانما أظن أنه لم يحسن التعبير عن سبب استحسانه للأبيات وحار في تعليله وقد وفّى هذه الأبيات حقها من الشرح والاستحسان عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز كما وفى ابن قتيبة نصيبه من النقد والتعريض وسنرى ذلك في حينه . وأخطأ ابن قتيبة في تعليل جمال أبيات اخرى لجرير خطأه في هذه الأبيات ولا يتسع الوقت لذكرها والتعليق عليها . ويأتي في المرتبة الثالثة الشعر الذي جاد معناه وقصرت الفاظه ويسوق مثالاً عليه قول لبيد بن ربيعة :

« ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه القرين الصالح

فقال هذا وان كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق ومنه نتبين أنه يريد بالمعنى هنا ما يكون حكمة او نحوها وبالسبك صحة تأليف الجملة من الوجهه النحوية .

والمرتبة الرابعة والأخيرة يأتي فيها الشعر الذي تأخر معناه وتأخر لفظه ويضرب عليه مثلاً قول الأعشى في امرأة :

« وفوهـا كأقاحيِّ غذاه دائم الهطل »

« كما شيب براحٍ با ردٍ من عسل النحل »

ويذكر أبياتاً أخرى من هذا النوع ثم يقول : وهذا الشاعر بيّن التكلف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رديء الصنعة وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة كشعر الأصمعي وابن المقفع والخليل . وقوله هذا يدلنا على أنه كان يعدّ التكلف والصنعة من مفسدات الشعر وأن السليقة ضرورية ليكون المرء شاعراً . ينتقل بعد ذلك ابن قتيبة الى فكرة ضرورة الحكم بالحسن من دراسة القول لا من معرفة القائل وهذه ملاحظة قيّمة للناقد ، يضرب مثالاً على ذلك شعر الأعشى :

« وقد غدوت الى الحانوت يتبعني شاوٍ مشل شلول شلشل شولَ »

فيقول : « وهذه الألفاظ الاربعة في معنى واحد وكان يُستغنى بأحدها عن جميعها وماذا يزيد هذا البيت إن كان للأعشى أو ينقص » . والذي يعنينا هنا هو نقده لهذه الألفاظ المكررة ذات المعنى الواحد وأن يعيبها لأن الثلاثة منها زائدة وكان يكفي رابع الثلاثة ليدل على المعنى . والجميل عند ابن قتيبة هو أنه لا يذكر قيما مجردة لقبح الكلام أو لحسنه وإنما يورد أبياتاً تتصف بما يعطي هذه القيم وينقدها نقد الأديب الفطن ويحكم عليها بذوقه الأدبي ، وحبذا لو اتبعت هذه الطريقة من قبل جميع من بحثوا في البلاغة ؛ فكانت تجنبنا تلك الدراسة المنطقية والفلسفية التي خضع لها علم البلاغة . فهو يقول إن الناس كانوا يستجيدون للأعشى قوله :

« وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها »[1]

حتى قال أبو نواس :

« دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء »

وأن أبا نواس بقوله سلخه وزاد فيه معنى آخر اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه ، وكل هذا ليستنتج أن للأعشى فضل السبق اليه ولأبي نواس فضل الزيادة فيه .

ويقرر ابن قتيبة للشاعر طريقاً يجب عليه أن يسلكه في القصيدة وهو ما يسمى

(١) الشعر والشعراء ص ١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعمود الشعر ولم يسمّه هو كذلك ، ويذكر العلل النفسية التي تدعو الشاعر لأن يسلك هذا الطريق فيقول إنما يقدم الشعراء الكلام في الأطلال ليمهدوا الأسباب لذكر أهلها ، ثم يتبعون ذلك بالنسيب ليؤثروا في القلوب ، وينتقل الشاعر بعد ذلك الى ذكر ايجاب الحقوق وانضاء الراحلة سفراً الى المحبوب ثم ينتهي الى المديح ويقول ان الشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ولم يُطِل فيملّ السامعين ويقطعَ وبالنفوس ظمأ الى المزيد وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكي عند قصر مشيد أو يرحل على حمار او بغل او يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس [١] وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا كقول من قال « ترافع العزّ بنا فارفنعا » قياساً على :

« تقاعس العز بنا فاقعنسسا » . وابن قتيبة في هذا يرسم للشاعر تخطيطاً يلزمه باتباعه جرياً على عادة الشعراء واتباعاً للغة العرب ليكون كلامه مستحسناً غير خارج عن المألوف .

ونرى ابن قتيبة بعد ذلك يتكلم عن أثر العاطفة في تأليف الشعر فيقول : وللشعر دواع تحثّ البطيء ، وتبعث التكلف ، منها الطمع ومنها الشوق ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب » [٢] ويذكر ان مدائح احد الشعراء كانت اجود من مراثيه في ممدوحيه لأنه في مدائحه يعمل على الرجاء في مراثيه يعمل على الوفاء [٣] وبينهما بون بعيد ثم يذهب الى أن بعض العواطف أقوى من بعض في حمل الشاعر على الاجادة في الشعر فالطمع في الجائزة أقوى من عاطفة التحيّز الى فريق من الناس [٤] ومن الجميل أنه يقول إن الطواف بالمناظر الطبعية الجميلة يحث على قول الشعر ..

(١) الشعر والشعراء ص ١٥ (٢) نفس المرجع ص ١٧ (٣) نفس المرجع ص ١٨
(٤) المرجع السابق ص ١٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم ينهي حديثه عن أثر العواطف في قول الشعر إلى أثر الشعر في عاطفة السامع التي تنتقل اليه من شعر الشاعر فيقول نقلاً عن أحدهم أن «أشعر الشعراء من إنت في شعره حتى تفرغ منه» (١) .

وينتقل بعد ذلك الى بيان عناصر أخرى في الشعر غير اللفظ والمعنى والعاطفة فيقول : «وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة المعنى واللفظ ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب منها الاصابة في التشبيه وخفة الروي (٢)» فالإصابة في التشبيه شيء راجع الى الخيال التصويري الذي لم يعرف العرب سواه في أدبهم إلا ما كان فيه خيال ابداعي من وضع القصص القصيرة طولا وخيالا .

ويتكلم ابن قتيبة عن ضرورة توفر الموهبة لدى الشاعر ليحسن شعره وينصح بترك التكلف فيقول : «والمتكلف من الشعر وان كان جيداً محكماً فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة اليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه (٣)» ويستشهد على هذا بشعر متكلف للفرزدق هو :

«أمير المؤمنين لأنت مرء ... الخ»

وقوله :

«وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا أو مجلّفُ»

برفع الروي والاحتياج الى التخريجات وإتعاب النحويين واضطرار الشاعر الى أن يقول : «علي أن أقول وعليكم أن تحتجوا» يقول : «وتبين التكلف أيضاً بأن ترى البيت مقروناً بغير جاره ومضموماً الى غير لفقه» .

وفي مكان آخر يقول في نفس هذه المناسبة : «والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجزه وفي فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة واذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر» (٤) ويضرب

(١) الشعر والشعراء ص ٢٠ (٢) نفس المرجع ص ٣١ (٣) ص ٢٣ من المرجع السابق
(٤) ص ٢٥ من المرجع السابق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مثلاً على الشعر المطبوع قول الشاعر (وهو ابن مطير) :

« كثرت لكثرة قطره أطباؤه فإذا تحلب فاضت الأطباء »

ويقول فيه : « وهذا الشعر مع اسراعه فيه كما ترى كثير الوشي لطيف المعاني » وهو يقصد بكثرة الوشي هذا التشبيه الرائع بين اندفاع المطر من السحاب ، بين تحلب اللبن من الأطباء وهو تشبيه تمثيلي جميل ثم هذه الصناعة اللفظية في البيت .

الى هنا نرى كيف يجمل ابن قتيبة الكلام على عناصر الجمال في الشعر فيتحدث عن عناصر اللفظ والمعنى والعاطفة والخيال التصويري وعن السليقة والمران لدى الشاعر وحسن السبك دون التعرض لها بصورة تحليلية عميقة ونرى أنه أحسن النقد وتعليل أسباب الحسن في مواضع دون أخرى وأنه كان أقرب الى الأديب الناقد منه الى البلاغي المتفلسف ، وأنه كان في حقيقة نفسه لا يقدم أي عنصر من عنصري اللفظ والمعنى على الآخر وانما يراهما صنوين متكافئين .

* * *

كتاب نقد الشعر : لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ

يتكلم قدامة بن جعفر في كتابه عن عناصر الشعر فيجعلها أربعة المعنى واللفظ والوزن والقافية وهو يدخل التشبيهات وما اليها ضمن المعنى كما يدخل السبك وتلاؤم الألفاظ مفردة ومجتمعة ضمن اللفظ وبهذا ينقص من العناصر الأساسية التي نعنى بها نحن عنصري العاطفة والخيال المبدع المؤلف ولا يلتفت الى مراعاة تنوع الأسلوب بتنوع المواضيع ولا التفصيل فيه . وهو يقدم بحثه وتقسيمه بأسلوب العالم المنطقي الذي يحسن التقسيم والتبويب لا بأسلوب الأديب الناقد الذي يحسن تذوق الأدب والحكم عليه . ولكن الجميل عنده هو أنه لا يفضل بعض عناصر الشعر التي ذكرها على بعض بل يقول بضرورة ائتلافها كلها بعضها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مع بعض ليكون الشعر حسناً . وهذه نظرية جيدة تعني بالانسجام وتنظر الى الشعر كوحدة لا تنفصم عراها ؛ فلا ينظر في الحكم على جودة الشعر الى المعنى فقط ولا الى اللفظ أو أي شيء آخر على انفراد ، بل جمال الشعر يؤخذ ويحكم عليه من مجموع الصورة النهائية . ولكن هذا لم يمنع قدامة من أن يبين قيمة كل واحد من هذه العناصر الأربعة على حدة ومتى يكون في نفسه حسناً إذا نظر اليه منفصلاً عن غيره ، ثم ماهو نصيبه في تحقيق جمال القطعة الأدبية وإبرازه . ويظهر أن ثقافة قدامة التي كان فيها قسط وافر من الثقافة الأجنبية ساعدته على هذا التقسيم الجيد ، أو أنه استقى هذا التقسيم نفسه من مصادر يونانية أجنبية . ولكن تعريفه للشعر لا يمتّ إلى هذه الثقافة اليونانية بصلة قوية ، وبصورة خاصة ليس له أي نسب مع تعريف أرسطو للشعر ، فقد عرف قدامة الشعر بأنه لفظ موزون مقفّى [١] وهو تعريف ناقص لا ينطبق على القول الجميل ، بل إن شعر العلماء في النحو وغيره من فنون العلم الجافة ينطبق عليه . ويتحدث قدامة عن قيمة المعاني في الشعر فيقول إن المعاني بمنزلة المادة والشعر بمنزلة الصورة ويقول إن للشاعر الحرية في أن يتناول من المعاني ما يشاء سواء أكانت هذه المعاني كريمة أو فاحشة [٢] والمعنى يجب أن يؤدي الغرض ولا يعدل عنه . وذكر مذهبي الغلو والاعتدال في إيراد المعاني وتصويرها [٣] وفضل جانب الغلو آخذاً بقول من قال إن أحسن الشعر أكذبه [٤] وقال إن معنى المدح يجب أن يكون في فضائل الناس الأربعة العامة ، وهي الشجاعة والعفة والعدل والعقل ، ويجوز المدح بأحدها أو ببعض اقسامه كالجود الذي هو فرع العدل . وهنا نلاحظ تخطيطه للطريقة وللمعاني التي يجب على الشاعر أن يأخذ بها نفسه في الموضوع الذي يريد طرقه .

---

(١) نقد الشعر ص١ (٢) المصدر نفسه ص٤ (٣) ص ١٧ من نفس المصدر
(٤) ص ١٩ نفسه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويرى قدامة أن المعاني يجب أن تتلاءم مع مقتضيات الأحوال [١] ويرى أنّ طرافة المعاني ليست عاملاً في جودتها [٢] ويتكلم عن الهجاء [٣] وكيف يجب أن تكون معانيه فيؤيد هنا نظريته في أن للشاعر أن يتناول المعاني التي يريد ولو كانت فاحشة فيقول إن من الهجاء ما تجمل فيه المعاني إذا أصاب الغرض وكان موجزاً . وينتهي قدامة من الكلام عن المعاني في نفسها ليتحدث عن كيفية إخراج هذه المعاني بالألفاظ والوزن ولكن باختصار ، فهو يصف ائتلاف اللفظ والوزن في الشعر فيقول يجب أن يراعى في ائتلافهما قواعد النحو وعدم الجور على المعنى [٤] وينعت ائتلاف المعنى والوزن فينادي بضرورة تمام المعنى واستيفائه في البيت وعدم زيادته عنه ، ثم يطلب ان تكون القافية مؤتلفة مع المعنى غير غريبة عنه ، ومحشورة لمجرد إملاء الفراغ . ثم يتحدث طويلاً عن عيوب المعاني كتكرارها وتناقضها وعدم صحتها وتلاحمها [٥] . ويلاحظ على نقده كله أنه مزيج من النقد الأدبي والبلاغة ، وأنه نقد جزئي فلا يلاحظ عنده نقد عام لمجموع قصيدة او نتاج شاعر بأكمله أو نقد هذا الشاعر نفسه بصورة عامة . ويتكلم على أهمية وضع الألفاظ مواضعها لتدل على المعاني [٦] فيقول لو وضعت بل بدل الفاء في هذا البيت :

« أرى هجرها والقتل مثلين فاقصروا ملامكم فالقتل أعفى وأيسر »

لكان الشعر مستقيماً . وينقد بعض الأبيات [٧] من نوع :

« فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور »

نقداً عقلياً مجرداً فيه كثير من التوفيق من جهة الصحة والخطأ والإمكان وعدمه ، ولكنه خال من الخيال وتقدير الأماني والعواطف ونزعات النفس وأحلامها في يقظتها .

(١) ص ٢٨ نقد الشعر
(٢) ص ٤٥ نفس المصدر
(٣) ص ٣١ نقد الشعر
(٤) انظر نقد الشعر ص ٦٣
(٥) انظر نقد الشعر ص ٧٦ - ٧٩
(٦) ص ٧٣
(٧) ص ٨٤ من نفس المرجع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحيث أننا فرغنا من كل ما أورده من النظرات العامة والقواعد التي إذا توفرت في الشعر كان جميلاً حسبما يقدّر هو فلا بد لنا أن نلاحظ انه تكلم كثيراً عن المعاني والألفاظ والوزن والقافية ولكنه لم يبين العلاقة الرئيسية بين المعاني والألفاظ من حيث القدرة فى سبك هذه على ابراز المعاني ، ولم يبين فيما إذا كان تفكيرنا ـ إذا نحن فكرنا في تأليف القطعة الأدبية وإظهار المعنى ـ تفكيراً في المعاني وترتيبها في النفس او تفكيراً في الألفاظ وانسجامها موسيقياً ، وهل قواعد النحو تراعى ائتلاف المعاني وتخدمها ام إنها تخدم الألفاظ . ثم لم يرسم لنا خطة لإبراز فكرة في رأسنا في شكل ادبي ، وكيف نقسمها الى عناصر ، وكيف نفكر في هذه العناصر ثم نجمعها من جديد ، ولم يبين ما هي الخصائص الوسائط التي تجعل الاساليب متنوعة بتنوع المواضيع ، وما هي صفات الألفاظ التي يجب ان تتوفر في موضوع بعينه .

ولم يبين لنا كيف نجد عناصر هذه الفكرة العامة الموجهة التى نريد طرقها لنلمّ بها ونجعلها كاملة ، ولم يستأنس بآراء من قبله في البلاغة كما لم يحاول وضع تعريف لها ولكنه على كل حال أتى بنظرية جميلة ربما استقاها كما قلنا من مصادر يونانية وهي نظرية الانسجام .

* * *

كتاب نقد النثر

لا يزال الاختلاف قائماً حول المؤلف الحقيقي لكتاب نقد النثر فالأستاذ عبد الحميد العبادي يرجح في نقده وتحقيقه المطبوع مع الكتاب أنه لقدامة بن جعفر السابق مؤلف كتاب نقد الشعر المتوفي سنة ٣٣٧ هـ ، ويرجح بروكلمان أنه من تأليف تلميذه أبي عبد الله محمد بن أيوب ، ولهذا آثرت أن أدرس كتاب نقد النثر على حدة . وعلى كل حال فهذا الكتاب يتفق مع كتاب نقد الشعر في أشياء ويزيد عنه في أشياء تكمل بها البلاغة كما أنه ينقص عنه في أشياء هي أنه لم يبحث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في بعض تفاصيل بحثها بتطويل مؤلف نقد الشعر ، ثم لا يتبع المؤلف نفس الطريقة في البحث ونفس التقسيم للمواضيع بل يضع لبحثه خطة أخرى تختلف عن تلك .

رأينا أن قدامة لم يعرف البلاغة في نقد الشعر ولكن المؤلف هنا يعرفها [1] فيقول : « وحدّها عندنا أنها القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام وحسن النظام وفصاحة اللسان » ثم يشرح هذا التعريف بقوله : « وإنما أضفنا الى الاحاطة بالمعنى اختيار الكلام لأن العامي قد يحيط قوله بمعناه الذي يريده الا أنه بكلام مرذول من كلام أمثاله فلا يكون موصوفاً بالبلاغة . وزدنا فصاحة اللسان لأن الأعجمي واللحان قد يبلغان مرادهما بقولهما فلا يكونان موصوفين بالبلاغة . وزدنا حسن النظام لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى ولا يحسن ترتيب الفاظه وتصيير كلّ واحدة منها مع ما يشاكلها فلا يقع ذلك موقعه » وهذا التعريف يطلعنا على أن البلاغة عنده تشمل الفصاحة لأنه اشترط فصاحة اللسان ليكون الكلام بليغاً ثم يجعل جمال الكلام راجعاً الى تعبيره تعبيراً قوياً كاملاً عن المعنى وإلى حسن اختيار الألفاظ لتأدية هذا المعنى ، ثم الى حسن النظام الذى هو التأليف والسبك وتبين هذا النظام في شرحه للتأليف بأنه ترتيب للألفاظ ووضع كل واحد مع ما يشاكله .

وفي هذا التعريف لا نرى اثراً للخيال ولا للعاطفة في تكوين جمال القول فهو ناقص من هذه الوجهة كغيره من تعاريف البلاغيين العرب .

وقد ضرب مثالاً على الكلام البليغ قول علي بن ابي طالب : « أين من سعى واجتهد وجمع وعدد وزخرف ونجد وبنى وشيد » وعلق عليه بقوله : « فأتبع كل حرف بما هو من جنسه وما يحسن معه نظمه ولم يقل أين من سعى ونجد وزخرف وشيد وبنى وعَدَّد ، ولو قال ذلك لكان مفهوماً ومن قائله مستقيماً وكان مع ذلك فاسد النظم قبيح التأليف » . وتعليقه هذا يطلعنا على أن حسن السبك عنده يتحقق بتلاؤم الحروف والكلمات لفظاً وتلاؤم الكلمات معنى بحيث تقرن الكلمة

(١) نقد النثر ص ٨٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بقربيتها في المعنى وشريكتها في الدلالة ، وعلى أن المؤلف يحب الصنعة في الألفاظ لأنه استشهد بالسجع .

ويتكلم المؤلف على سبب تسمية الشاعر شاعراً فيقول : إنه سمي كذلك لأنه يشعر من معاني القول واصابة الوصف بما لا يشعر به غيره . ويقول إن الشعر إنما يكون فائقاً إذا اجتمع فيه صحة المقابلة وحسن النظم وجزالة اللفظ واعتدال الوزن وإصابة التشبيه وجودة التفصيل وقلة التكلف والمشاكلة في المطابقة [١] . ويلاحظ إهماله جانب العاطفة ، وعدم ذكره المعنى مما يجوز لنا أن نفهم أنه يرجح جانب اللفظ على جانب المعنى . ولكنه حين ينتقل الى الكلام على ما ينبغي للشاعر أن يعمله يقول ما خلاصته أنه يجب أن يضع المعنى وكل شيء موضعه [٢] وان يتساوى ويتكافأ معنى البيت مع لفظه فلا يزيد اللفظ عن المعنى ولا المعنى عن اللفظ [٣] وإلا فسد الشعر كما فسد قول الأعشى :

« وقد أروح الى الحانوت يتبعني شاوٍ مشل شلول شلشل شول »[٤]

وأنه ينبغي له الايجاز وأن يستوفي البيت الواحد معنى او معنيين فلا يكمل بيت معنى بدأه الشاعر في بيت قبله . وهنا نلاحظ نظرته الجزئية في إظهار الفكرة واستقلال كل بيت عن الآخر وعدم النظر الى القصيدة كوحدة .

ويقول إنه يحق للشاعر ان يتصرف في المعاني كما يريد فيصدق او يبالغ فالكذب جائز في الشعر وان ارسطو طاليس ذكر الشعر فوصفه بأن الكذب فيه اكثر من الصدق وذكر ان ذلك جائز في الصناعة الشعرية [٥] . ونلاحظ هنا أمرين الأول ان المؤلف متصل بالثقافة اليونانية اتصالاً وثيقاً ، والثاني أنه يورد نفس الرأي الذي اورده قدامة في نقد الشعر وهو ان المبالغة جائزة في نظمه .

ويضيف الى هذا اشياء تكون في الشعر فتزيد في حسنه [٦] : منها حسن

(١) نقد النثر ص ٩٣ (٢) نفس المرجع ص ٩٧ (٣) ص ٩٩
(٤) وهنا نلاحظ أن المؤلف اورد نفس البيت الذي أورده قدامة في نقد الشعر .
(٥) ص ٩٩ (٦) ص ١٠٠ من نفس المرجع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الانشاء وحلاوة النغمة وتلاؤم الألفاظ مع موضوعات المعاني وخلط الجدّ بالهزل واستعمال كل منهما في موضعه حتى لا يمل الناس الجدّ ولا يسخرون من كثرة الهزل . وهذا يطلعنا على أنه لم يهمل جانب الموسيقى ولا جانب المعاني وتلاؤمها مع الألفاظ . وضرب مثالاً على تلاؤم المعنى والشعر مع المقام قول امرئ القيس وهو في عنفوان أمره وجدة ملكه :

فلو أن ما اسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

وقوله وقد ضعف أمره فوضع القناعة موضعها :

« ألا إن لم تكن إبلٌ فمعزى كأنّ قرون جلتها العصي » الخ [1]

ويذكر قبح التكلف وضرورة الجريان على السجية في الألفاظ والمعاني ويقول إن البلاغة ليست الاغراب في الألفاظ والتعمق في المعاني والفصيح ما افصح عن المعنى والبليغ ما بلغ المراد . والألفاظ يجب ان تكون مفصّلة على قدود المعاني والكلامُ متناسباً مع المقام من حيث اللفظ ومن حيث المعنى [2] . والفصيح من الكلام في رأيه ما وافق لغة العرب ويقول إن النحو وضع لمعرفته [3] ونراه يلح في موضع آخر ايضاً على ان لكل مقام مقالاً [4] ، وان الألفاظ يجب ان تكون على قدود المعاني [5] .

نتبين مما سبق من القول ان مؤلف نقد النثر كمؤلف نقد الشعر لا يرجح جانب اللفظ على جانب المعنى ولا جانب المعنى على جانب اللفظ ولكنه يرى ان الجمال يكون بائتلافهما وتكافئهما ويتحقق ذلك بحسن السبك الذي هو ملاءمة بين الألفاظ من حيث نطقها في الفم ووقعها على الأذن مما يعبر عنه بالفصاحة ومن حيث ارتباط الكلمة بجارتها معنىً ووجودها في موضعها لتؤدي فيه وظيفتها المزدوجة المشتركة بين اللفظ والمعنى .

(يتبع) نعيم الحمصي

(١) نقد النثر ص ١٠٨ (٢) ص ١١٨ (٣) ص ١٦٠
(٤) انظر ص ١٦٣ (٥) انظر ص ١٦٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net